فؤاد التكرلي

الدمّلة

جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل ، حينما خرجا من بار « المشرق » وسارا بمحاذاة الرصيف وهما ينفثان الدخان من انفيهما . كان هواء الليل نقيا ، ولم تكن خطواتهما الثقيلة مضطربة . سمع صاحبه يقحّ بعنف ثم يبصق وهو يكلمه :

« وين سيارتك ابو حسين ؟ »

اراد ان يجيبه انها ليست معه :

« ما ادري . قريبة يمكن » .

لم يشعر برغبة في مرافقته . دار بعينيه مفتشا عن السيارة ؛ كانت علىمبعدة امتار . اللعنة ؛ وسار اليها يتبعه الظل الاسود . دخلاها وادارا المفتاح ثم اهتزا مع اندفاعاتها المتقطعة . لامس الهواء وجهه باردا ناعما ، وتراخى جسمه مع حركات السيارة الرتيبة رآه من طرف عينه متكوما جنبه كالقنفذ ؛ لا صوت ولا نأمة ، سوى الدخان البليد .

كان الشارع الخالي طويلا تغيب انواره في الافق ، والاشجار على جانبيه تمر سريعة خفيفة . شعر بمثل تيار في نفسه ينساب مع السيارة والاضواء والاشجار والليل ؛ الحياة الماضية والذكريات والاحلام والصور المبهمة . لو كان وحيدا ، مع هذه المشاعر الناقصة! كلم صاحبه :

« وين صاير بيتكم ابو علاء ؟ »

فاعتدل كمن لسعته افعى :

« شلون عيوني ابو حسين ؟ مادا اسمع » .

« وين توصل ؟ »

« كيفك ابو حسين . آني ماعندي شغل . للكرادة » .

« شكو عندك بالكرادة ؟ »

فانفجر ضاحكا ثم بدأ يقح ويشهق :

« ما عندي شي » .

وبصق بقوة .

«وبعدك ويه العجوز ؟ »

عادت الضحكة المتشنجة والشهقات ثم البصقة القوية:

« سنشوي يا بو حسين ، العيشة تنراد . تمام ؟ »

كان الشارع مظلما امام اضواء سيارته المتأرجحة ،ولم يكن يعلم من اية جهة يمكن ان يصل الكرادة . لو كانت معه لفهمت انه لا يجد الطريق . تتكيء بذراعها على طرف الباب وتنقر باناملها على حافة الراديو ، وقد تغني او تستمع الى الغناء وتهز رأسها ويهتز قلبه مع حركاتها . كانت ستكلمه بعينيها وتسمعه الفاظا لم تخرج من الشفاه . شعرها الاسود الطويل وعيناها الصفراوان .

« تعرف ابو حسين ، آني ما اشرب كل يوم . بالاسبوع مرة ، مرتين . وراها يعجبني روح اسلم على الجماعة » .

« تبقى تسلم الليل كله عليها ! »

فكاد يختنق بضحكه وبالدخان الذي ينفثه . لم يدر لماذا قبّلها ذاك المساء العطر في زاوية مظلمة من الحديقة . كانت شهية متفتحة . شعر ، وهي تكلمه بما لا يدري ، نفسه ينحني ويمس فمها بشفتيه . لم يقل لها انه يحبها ، لم يكن يعلم ذلك ؛ وكانت مندهشة بعض الشيء . ثم انسلا عائدين الى الدار بسكون . لم تخبر امها ، زوجته ، ما جرى ؛ وكان يريد ، هو الشقي ، ان يعطي لهذا الكتمان معنى ما .

ثم رأى منعطفا امامه فاستدار استدارتين عنيفتين انفتح بعدهما الافق في شارع عريض مظلم. لم تفارقه آثار وحدته خلال الايام القليلة الماضية. لا يزال متعبا من لا شيء ؛ يحس نفسه مفترسا . ظن ، حين رأى صدفة صاحبه هذا ، انه قد يستطيع بسهرة مع العرق والكباب ان يبعد الظل الاسود الذي يقبع فوق كتفيه. وشربا قنينة العرق خلال الساعات الاخيرة واكلا اكثر مما تأكل الحمير وضحكا طويلا . وكان ستار الغباوة المسدل باستمرار على وجه صاحبه يذكره بعبث محاولته صب هواجسه في هذه النفس المغلقة .

كانت السيارة تنساب دون اهتزاز ، والهواء البارد يعانق وجهه ويعبث بشعره؛ وكان الليل هادئا . لم تفزع حينما ميزت وجهه في ظلمة غرفتها الصغيرة ، ولم تقل له شيئا معينا تذكره ، وكانت ابتسامتها تخفي سرا مبهما . تسلل الى غرفتها دون تصميم سابق بعد ان نام ابنه وزوجته ينامان . كانت الدار ساكنة ولم يكن مترددا . اراد ان يتيقن انه يقبّلها، مسّ شفتيها ، وانه لم يكن حالما وانها لم تكن شبحا . واعطته ، تلك الليلة ، من شفتيها الناعمتين وملمس كتفيها سعادة وفرحا لم يحس مثلها من قبل . حدثها بكلمات لا معنى لها عن اشياء لا يفهمها وكانت عيناها تتلامعان في الظلام امام عينيه .

سمع صاحبه يتكلم :

« شد كول ابو حسين ؟ آني تره من اشرب آذاني تصير تكيلة . يمكن احنا بعيدين

شوية عن الكرادة » .

خنقت قلبه تلك الذكريات فردد :

« يمكن . يمكن . يمكن » .

لو كان منفردا في ظلام سيارته ، مع السماء ، مع النجوم ، لاجهش باكيا ولاخرج حسرات قلبه مع كل دمعة ساخنة . ولكنه لا يمكن ان يريد هذا . ليس البكاء عادة مفيدة في مثل سنه .

« عندك نار ابو حسين ؟ »

لم يكن قد رآها حين تزوج امها قبل سنوات قليلة . وبقيت خارج وعيه حتى الاشهر الاخيرة ، حين بدأ يشعر بوجودها الطيفي في حياته وبانها عنصر لا غناء عنه في هذه الحياة . وكان ذلك مع اشراقات جسدها الفتي الاولى ومع الرؤى المحرقة لخطوط افخاذها وخصرها وانحناءات ردفيها وصدرها . كانت تلك التعريات ابتذالا لا مبرر له من فتاة طائشة . ولم يبد انها تقصد شيئا ، ولا كان بوده ان يقصد شيئا هو الآخر .

« عندك نار بالسيارة ابو حسين ؟ اريد اشعل الجكارة الله يخليك » .

« تفضل » .

ولكنه لم يفهم ماذا يحدث له ؛ ويوم صارح نفسه انه يشتهيها وانه لا يمتنع عن اي عمل خسيس كي ينالها ، شعر انه يغوص الى اعماق مظلمة لا قرار لها . وكان حزينا ، حزينا . انها ليست هذه الفتاة الغريرة المقادة بعماء نحو الجنس ، وهي ليست اشتهاءه واحلامه ؛ ولكنها الحياة والموت ، النور والظلام . وكان مرتبطا بها ، يحس بمهانة وهو يرى حياته مهددة لسبب رخيص .

كان جو السيارة مضبّبا مليئا بالدخان رغم الهواء البارد المندفع من الشباك الصغير وكانت الحسرة ، الصخرة المحرقة ، المدية الحادة ، تخدش صدره . انها تموج وتتلاطم مثل ميلاد البحر ، وترتفع ، ترتفع من اعماق نفسه ؛ ويشعر بالعبرة في اعلى صدره ، في رقبته ؛ فيصر باسنانه ويضغط برجله على عتلة البنزين . لم يكن يفتش عن الدموع ؛ انها لاتغسل آلامه وهو ليس معدا للبكاء .

« الفرق ما يسوه . دقيقة لو دقيقتين . لويش هالسرعة ابو حسين ؟ آني ما مستعجل »

سحب قدمه عن عتلة البنزين فأبطأت السيارة قليلا :

« آني هم ما مستعجل ابو علاء » .

كان صوته اجش غير ثابت :

« لويش استعجل ؟ هو جم مرة يموت الواحد ؟ »

« شلون ؟ ماذا اسمع ابو حسين . آني آذاني تصير تكيلة ورا اول كلاص » .

« على الموت ؛ على الموت دا احجي » .

« شبيك عيوني ابو حسين ؟ عندك سوء تفاهم ويه الاهل ؟ »

« لا » .

« لعد لويش مقهور عيوني ابو حسين ؟ »

متى كان للموت سبب يفهمه العقل وتقبله النفس ؟ ولكننا نقترب كل لحظة من هذه التجربة المجهولة . وحين علم بعلاقتها باحد الرجال هبط قلبه بشكل مفاجىء واحس انه فقد الكثير من حياته خلال دقائق . لم يبقَ للموت غير ان تتكرر هذه الدقائق . ولم يبخل – في الحق – عليه بها . وظهرت ، بعد اسابيع من عملها في احدى الشركات ، بشفاه الملطخة بالاحمر القاني والعيون – وا أسفاه – الصفراء المثقلة بالكحل ؛ وكانت تبدو منتصرة عليه . ولم تسكن ناره ولم يبقَ له غير ان يختار اسوأ ايامه .

« اخوية ابو حسين ، اذا حبيت نزلني من السيارة . آني آخذ تاكسي وارجع لبيتنا » .

واخبرته بضحكاتها العالية وانعطافات سيرها ،وبتعريات ساقيها وابطيها ، انها تعبث بالحياة التي لا تفهمها ، وبالقلب الضعيف المرتعش وبمهانته . بمهانته ، بمهانته .

كان يضرب بيده على اطار الشباك الصغير ضربات خفيفة رتيبة وهو يتطلع بذهول الى خط النور المتذبذب على ارض الشارع. وكان صاحبه ساكنا ، يحدق امامه هو ايضا محاولا تمييز الطرق .

« فد جكارة من فضلك ابو علاء » .

« حاضر عيوني ابو حسين » .

واسرع باخراج واحدة قدمها له :

« ما عندي نار ابو حسين . انت عندك قداحة بالسيارة » .

« نعم . نعم » .

« يمكن لو تلفت على اليمنة نطلع على شارع الكرادة » .

نفث الدخان فرجع على وجهه مع هواء الليل :

«لو، اذا حبيت ، بس توكف شوية ، خاطر اخوك ينزل وياخد تاكسي » .

« لويش ابو علاء ، قابل ما اعرف دربي ؟ شوية بس لا تستعجل » .

« لا عيوني ابو حسين . شكو عندي استعجل ؟ »

لماذا لا يدعه وشأنه ؟ ولمَ يجب ان يدينه معه ، ولم يفعل شيئا؟ مثله ، هو المدان في الابد ، لانه لم يفعل شيئا ؛ لانه اراد ان يحقق الاشياء على طريقته الرديئة .

« لا تلومني ابو علاء. آني اريد اوصلك للبيت ، لكن الطريق شوية طويل » .

« نعم . نعم ادري » .

« آني احب ابقى وياك . تعرف ابو علاء ، صار لي ثلاث ايام ... صار لي ايام ، ما ادري وين جنت ... ما ادري » .

« نعم ، نعم اعرف . على اليسرة ابو حسين، على اليسرة ونطلع على شارع ابو نواس . اليسرة » .

لم تضطره ان يختار نهاية لشقائه واضطرابه . كانت تعلم امرا ما يبدو لها يقينا لا يتزعزع . وكان ظاهرا انه لا يدخل ضمن اطار حياتها . وعبثا، عبثا كان يطرد تفسيراته لتلك المخابرات التلفونية المتكاثرة ولغياباتها المستطيلة ولشرود الذهن والارهاق . كانت تعلم امرا مجهولا ، لعله الحكم عليه بانه شخص افل نجمه . الا انه لم يستطع ان يرضى بذلك . ومن خلال هروبها المستمر منه واحتجاجها باتفه الاسباب كي تثور عليه وعلى امها ، انبثقت في ذهنه فكرة زيارتها الليلية . بدت اول الامر فكرة جنونية حمقاء لا جدوى منها ، ثم نمت وتفرعت في ذهنه وقلبه كالسرطان الخبيث . وانتهت ، مع الايام، بان تملكته . التهمته مثل وحش جائع . لم يبقَ له مهرب . كانت الحد الفاصل والحمى المتمشية في اطراف جسمه . لم يشعر انه قد ينتهي بعدها ، ولكنه احس عن يقين انه سيموت لو لم ينفذها .

« ابو حسين . عيوني ابو حسين ، شوية على كيفك . الشارع ضيق والشط عالي . لويش مستعجل الله يخليك ؟ »

انتبه الى السيارة تهتز بعنف على ارض الشارع العكرة ، ورأى مياه دجلة الطافحة تنعكس عليها اضواء الشاطىء البعيد . سحب قدمه على عتلة البنزين وغيّر من جلسته قليلا . كان رأسه يطن وعيناه مجهدتين، لكنه لم يستشعر تعبا او رغبة في النوم . ود لو استطاع ان يغني اغنية حزينة على شاطىء مهجور ؛ اغنية تذهب بها الرياح ولا يسمع لها صدى . سمع صاحبه يغمغم باشياء لم يفهمها ولم يرد ان يفهمها ، وكانا يسيران بمحاذاة الرصيف والنهر . هل يجب ان نفهم الحياة جيدا وبعمق، ام ان نغنيها كما نغني اية اغنية حزينة لا معنى لها ؟ ولعلنا ، مع الالحان ، نستطيع ان نعمل كل شيء .

تلك الليلة الربيعية ، قبل ايام ، حينما انسل من غرفتهم الى الحديقة —

« جكارة ابو حسين ؟ آني تقريبا وصلت للبيت » .

— ولبث يتمشى ويستنشق الهواء الرطب كي ينعش قلبه المرتجف . كان ينتظر اشارة مبهمة لا يعرفها كي يمضي في سبيله . خيل اليه ان النجوم ، في السماء السوداء ، اشد لمعانا من قبل، والاشجار الساكنة تخفي اشباحا خلفها ، ولم يدرِ ماذا يعمل بنفسه المتوحدة . وتتابعت الصور في ذهنه بغير معنى ، بغير معنى ؛ وضاقت نفسه مع خطواته المتثاقلة وتملكته الخشية من العبرة التي بدأ يحسها تفيض في صدره . انها النوبة التي لا ترحم . ستلفه

هذه الموجة من العبرات بين طياتها وستحيله ، مع الدموع الجارية ،الى صرصار مسحوق . افزعته هذه الاشارة المفاجئة فاسرع نحو غرفتها . لم تستيقظ عندما وصل سريرها سائرا في الظلام ، ولم تجبه حينما همس باسمها مرتين . وانتظر من الخوف والخجل والمهانة ، ثم لمس كتفها الناعمة العارية . وود ، لحظة ، لو كانت ميتة ؛ لو كانت عاجزة عن اجابته ، عن تكملة مأساته . وفزعت حينما تبينته وتراجعت وهي تخفي صدرها . كان يراها في الظلمة الخفيفة ؛ تقاطيعها المبهمة الجميلة وذراعيها المضيئتين. ونسي ما اراد ان يقوله لها ، وادرك انه انتهى مع حركتها هذه. لم يبقَ له الا ان يبدأ حيث انتهى ، ان يبدأ نهايته. وكان يكفي ان تلبث في وضعها ذاك ، منكمشة بعيدة ، كي ينصرف بهدوء ويقتل نفسه تحت اشجار الحديقة الساكنة . اما ان تصرخ لغير سبب ، وان تقفز كالشيطان هارعة الى امها ، فذلك لانها رخيصة مليئة بالرذائل .

« عيوني ابو حسين ، الله يخليك . على كيفك » .

ولانه لم يستطع ان ينتزعها من نفسه خلال ايامه الاخيرة في وحدته المفزعة ، ولانه لم يتغلب على عبراته ، هذا البحر المتلاطم ، ولانه لم يقتلع من اعماق قلبه تلك الدملة القذرة السامة ، ولانه يبكي الآن —

« اخوية ابو حسين ، دير بالك . الشط . دير بالك الله يخليك » .

كان مرتميا على عجلة القيادة وهو يحاول الانحراف بالسيارة نحو النهر . لم تترك له دموعه مجالا للرؤية ؛ وكان يحس ، خلال تشنجات صدره العنيفة ، انه يفارق نفسه ،يتجرد من الانسان الذي كانه. لا مجال للعودة المهينة . ثم شعر بصدمة تهزه وبلطمة قاسية على صدغه . لم يفقد وعيه ، وكان يسمع صاحبه يطلق صرخات عجيبة ويمسك قويا بذراعه . كانت السيارة تتقافز فوق الرصيف بحركات مجنونة وخط المياه اللامع يرتفع من جهة لاخرى . لن يمكنهم ان يقولوا عنه شيئا ؛ لانهم وعالمهم ومواضيعهم ، اشياء لا تتكرر . وكان رأسه يدور ويدور حينما صفعت السيارة ماء النهر فانشق ببطء وابتلعها . لم يخفه الصمت المميت الذي ران عليهما ولا الظلمة الخانقة . احس بتخاذل في جسمه وهو يستشعر برودة المياه المتدفقة . لن يجدوا اثرا لهما بسهولة ، وكان وحيدا .